قراءة في ديوان متحف العدم لعادل عبد الله

ياسين النصير

(١)

قد تجتمع مخيلة الشاعر مع الفلسفة لتبحث في اللا مرئي ففلاسفة العرب جلهم شعراء وموسيقيون وخياليون، والمسألة لا تعدو أن تكون تمرينا رياضيا يفتح في أفق المعرفة مجالا لخيال الحكمة، هكذا هو شأن ابن عربي والحلاج. وإذا تعمق تيار الذهنية المشفع بالتجربة أنتج معرفة نقدية - تحليلية أبن رشد مثلا- وإذا تعمق تيار اللا مرئي والعلم والموسيقى والشعر والحكمة أنتج الفارابي وابن سينا، وإذا عزل الشاعر بين دراسته الفلسفية والشعر أنتج شعراء معاصرون من بينهم الشاعر المرحوم رعد عبد القادر والشاعر عادل عبد الله وإن اختلفا في الرؤية. ترى ما شأن الشاعر عادل عبد الله وأنا من المعجبين برؤيته النقدية وبعض قصائده يوم ذاك؟ فبقي إعجابي محدودا بديوانه "مؤونة الرحيل إلى الفراغ" ١٩٩٠, و حتى التقيت به في مهرجان البابطين في الكويت نيسان ٢٠٠٥ ليهديني ديوانه الجديد " متحف العدم" دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٤ وجدت فيه الاثنين: الشاعر والحكيم فتبددت رؤيتي الأولى في الثانية دون أن افقد ما كنت عليه. هل نحن في أرض لا تزال برغم ما مر عليها من محن الحروب معطاءة على مستوى أخر غير كتابة القصيدة والقصة؟ اعتقد أن عادل عبد الله المشبع بالفلسفة قريب إلي بقصائده في هذا الديوان من معالجاته لدائرة أدونيس الثقافية.

موضوع شعرية عادل عبد الله يقف في الطرف البعيد من مواضيع الشعرية العربية عامة، والعراقية بوجه خاص، فعنوان الديوان " متحف العدم" يوحي بثنائية: المتحف والعدم ، التراث والمستقبل. العام والشخصي. الحكمة الشعبية وفنطازيا الوجود. فقد لا يكون الاختلاف عن الآخرين ميزة تحسب له،لكن قراءة الديوان تفصح عن قرب شديد للواقع. شخصيا أحب الحفر الجماعي الذي يميز معولا عن آخر، ولكنه وهو يواصل مشروعه الشعري مقتنع حد المناداة بطريقته أن ميدان الشعر هو الذات العميقة كما يقول البريكان. ويبتدئ الديوان بتعريف العدم شعرياً فيقول إن العدم هو "السحاب الذي سيمحو بأمطاره صحيفة العالم المدونة" سيمحو التواريخ والمدن والأشياء، وإذا بالتعريف يصبح تعريفات عدة فعدم عادل كما جاء في قصيدة المفتتح هو " السحاب، والزهرة، والقصاصة، والوعاء الكبير، والسيرة الخفية، واللحظة الفريدة، والرغبة المستحيلة، ومكان دفن الأفاعي، والمدخل السري، ونطفة المحارم، والملف، وبذرة السكون، والكلام، والطيف، ومؤونة المتوحدين، والشعور،وشهوة الإنهدام، ورغبة النخاس، والذراع، وقلب الذاكرة،...الخ.." فتجد أن التعريفات جمع من لغة الفلسفة"الوعاء الكبير- اللحظة الفريدة" ومن لغة الشعر"رغبة الناس- الكلام" من الماضي"السيرة الخفية- مكان دفن الأفاعي" ومن الحاضر " الكلام –الزهرة- قلب الذاكرة ". وعلينا أن لا ندخله بمواضيع لم تحسم بعد فشعرية عادل تتكئ على ما أنجز نثراً في الفلسفة وإن لم يغب عنه المؤمل الواقعي المعيش فهو يعتمد أدوات متحفية لرؤية واقعه اليومي بلغة غير يومية والذي لا يراه كما يراه الآخرون، عادل يرى الواقع منكفئا للخلف كجزء من الاستعداد الفكري لمشاهدة عدم الحاضر في الماضي. وفي الرؤية المعيشة له ما يمكنك أن ترى ما خلف الصورة المشاعة، ترى كيف تتشكل المعرفة من النفي الكلي، وكيف يكون العدم موجودا بيننا رغم أننا نصنعه، وكيف أن الجميع منساقون إليه بإرادتهم.. وفيه بعد أن تزيح القشرة الخارجية ترى إن ما جرى على أرض العراق كله من حروب وتدمير وفلسفة شيطانية ناقصة الحروف هو العدم نفسه وقد تشكل هذه المرة بوقائع لا يمكن رفضها.

يا أيها الموت الفسيح
بآنه ومكانه
أنا ها هنا
في أمن بغداد مكاني،
إن عز خطفٌ الروح من أحدٍ
بغير أوانه
فأحرص " رعاك الله"
أن تأتي على عجل بآني. ص ١٠١

فالشعر عند عادل طريقة صوفية لرؤية ما يحدث اليوم فلا يخشى الحياتي ولا يستحي منه، بمعنى أن تجربة العراق لا ترى بألفاظ الحروب، ولا بندب العجائز، ولا بذاكرة الجند، بل ترى عندما توضع كنصب مشوهة في متحف للعدم شواهد على العدم نفسه، حينذاك عليك أن تنسحب منها بالكتابة ضدها. قصائد عادل لا تصلح لقراءة فردية، بل للقراءة الجماعية لاحتوائها على نغمة الرد الحزينة كدلالة على وجود قراء كامنين فيها منذ القدم.

إذن فلا أملَ لك
أيها الفنار الأخير في قاربٍ
أو قطعة من سفينة محطمة،
يطفو على متنها أحدٌ
يقص عليك أنباء من هلكوا،
فقد أطفأ الناجون مصابيحهم في المياه
وهي الآن موقدة من زيوت الظلام.ص ٢٨

هذا المقطع جزء من نشيد جماعي نسمعه منذ القدم وهو يستبطن كل أغاني التعازي والمقابر والسجون. في ضوء ذلك قد لا تجد حاجة دائما لقراءة قصائد عادل إن هي تحدثت عن واقع معروف فهي لا تطرب ولا تغنى ولا تحفظ شأنها شأن الأقوال: أقوال الحكمة والفلسفة والأنظمة. قصيدته ترى، فهي لوحة مفتوحة على أزمنتها كلها، لوحة قابلة للمشاهدة الدائمة كجزء من العدم القائم في الوجود.

وداعا،
أيها الراقدون هناك
تتبادلون التراب
الكلام الأخير
والرعب
والصلوات. ص٦١

(٢)

في سياق القراءة النقدية للديوان تصادفك الكثير من ألفاظ الروح والظلمات والعدم والفناء والموت والأمل والمتاهة والغواية والمقدس والحب والعراق الذي يتكرر بكثرة. ألفاظ لرحلة البحث عن القلق الذي ينشئه الإنسان المعاصر، فقد يجد الشاعر مادته في الوجود وفي العدم، في المتحف وفي الشارع، لدى الحبيب وعند بائع التعاويذ، في المفترض وفي واقع العراق اليوم خاصة عندما تصبح المقابر الجماعية عدماً آخرا. هي ألفاظه الشعرية التي لا تعرف حدودا لعالم دلالاتها، تدخل القلب كما تدخل الكهف، تعيش أزمنة مختلفة دون أن يقترب منها شاعر معاصر، وتتداول على كل الألسن دون أن يدعي أحد ملكيتها. ألفاظ عادل المحورية في هذا الديوان مشتبكة بين الكائن ومشكلاته، وهي وليدة الوجود العراقي اليوم الذي هو نتاج لخراب الفكر. هل يسعى عادل لتأسيس لغة شعرية جديدة لا روح فيها إلا متى ما أحلتها على موضوع عراقي، ولا يمكن الاستشهاد بها إلا متى ما وجدتها قرينة لفعل معيش؟ فعادل لا يتوسل بالواقع كي يكتب عنه بل يسحب الوقائع لقصيدته بمعنى أن ثمة تكويناً أسلوبياً خاصاً يتحكم برؤيته للموضوع قبل أن يبدأ كتابة القصيدة. مادة هذا التكوين أن ما يرى ليس نتاج اليوم بل هو مؤسس منذ عقود، ولذلك يحتاج كي يرى ويكشف ويعري إلى الفلسفة ودقة بحث ولغة عالية وبنية شعرية جديدة رغم بقاء إيقاعات العمود قائمة في أعماق الصورة. أنا ما تبقى من زهور الحقل بعد قطافه فمتى يحين لكفها قطفي

أفلم يحن لحجارة أحيتها بالنطق في حرف؟
أخطو إليك، وليس يمنع أن أرى إن الخطى إبرٌ تخيط برحلتي حتفي. ص١٢٥

ولذلك لا تجد فرقا كبيرا بين قصيدة "مدائح الوجود" مثلا وبين قصيدة "الأعداء "أو" أسئلة" أو" تصوف" أو "مروض الجسد" وغيرها. كل القصائد في مناخ لغوي واحد. هل ثمة شيء بقي من أسئلة الفلسفة على أرض لاتظهر على الخريطة ولاتشير لها نشرات الأنواء الجوية .

وبين ثنايا القصص التي يؤرخ فيها القاص محسن الرملي محنة الناس تجد علامات كثيرة تشير الى الوجه الأخر من محنة الناس والوباء الذي ينخر أرواحهم ، ومع هذا لايترك أي أحساس أنساني يشعر به الناس دون أن يقوم بتوظيفة واستغلاله ، وهذه مقدرة أن تستل من بين حفنة الأحاسيس ما تشترك به الناس في أدق تفاصيل أعمارها وأيامها فتفاصيل مايدور في قصة (القصف في غرفة أمي) تفاصيل دقيقة لأحاسيس أنسانية نسمع فيها شهيق أنفاسهم ورائحة قسائهم وضحكاتهم وعبق بيوتهم الطيبة ووجعهم الأدمي بتحمل كل هذا العذاب دون أن يعرفوا أن الحرب انتهت مع أنهم لم يعرفوا لماذا بدأت أصلاً .

محسن الرملي يكتب أسمه عراقياً لكنه بكل اللغات ، يشعرنا بالفخر ويجبرنا على أن نتابع ما يكتب باهتمام شديد فلقصصه طعم الرطب ومذاق النبق العراقي.

غطيت كلها بالقنابل ولم تجد أجابتها في الواقع؟ أم أن الواقع العراقي يمتحن الشعر والمصطلحات بعدم قدرتها على استيعاب ما حدث فيه لذا عليه أن يغير بنيتها؟. وهل بمقدور إنساننا المعاصر المكبل بقيود سلفية أن يفهم ولو لفترة قصيرة أن وجوده معلق باكتشاف لغة مجسات وليس لغة مصالحات؟ فالآخرون الآتون بدباباتهم والآتون بعمائمهم يفرزون من جديد لغة متخلفة. وهل يستطيع إنساننا العراقي أن يتحرك في واقعه ليراه ويكشفه ويسوح فيه كراء له موقف؟ أم انه لا يزال مقيدا بتلك التابوات المتحفية ا التي تقيد ليس حركته وحريته، بل وزوايا نظر عينيه، أعني روح الطائفية التي تسير بلدانا متحررة من عدمها. إن كل هذه الأسئلة تفرض أجوبة جديدة ولغة شعرية جديدة لذا تعد لغة عادل الشعرية والفاظه المحورية مجسات حديثة ستأخذ مداها الشعري في السنوات القادمة.

بالطبع لست جوالا في صحراء متحف عادل عبد الله وغيره دون عدة حفر، فأنا شخصيا وإن اتكأت على تجربة المنفى مشفوعة بما بقي عندي من تلك التي كانت معلقة بجسدي وفكري وثقافتي العراقية، أجد أن قراءتي لديوان شعري يستفزني إلغاء لثقافة المنفى . ولهذا فقراءة قصائد من هذا النوع إلى جوار قصائد أخرى معيشة ويومية لشعراء آخرين تعيد لي جزءاً من مناخ تجربة الحوار المولد رغم ما في مفرداتها من خلاف منهجي. عادل عبد الله ومن قبله رعد عبد القادر يقودانني لمنطقة صخرية في الذاكرة الجمعية للقراء، وهي أن نبعد عن قصد الحكمة المسبقة من القصيدة ونجعل رؤيتنا الشعرية تولد حكمتها عما نعرفه من وقائع. فالقصيدة مهما تغربت، يُبنى بيتها على شواطئ العراق.ففي كل القصائد ثمة نغمة شعبية وإن غطت عليها اللغة.

في مثل هذه المرحلة نحن بحاجة إلى الحكمة والصوفية والوجود والعدم والمخيلة المتجولة في المتاحف وصور الحياة اليومية وأسئلة اللغة التي لا تجد فيها أحيانا ماء؟ فما حدث لا تكفي أسئلتنا القديمة لاستنهاض جواب. لا شك في إن أسئلتي إجابة ناقصة لقراءة مبتعدة عن المشهد الشعري العراقي الحديث فربما نشأت في السنوات الخمس عشرة الأخيرة بقعة شعرية جديدة لا نعرف نحن البعيدين عنها شيئا. فالشعر بعد الحروب يحمل صدمات جديدة وأنا من المتفائلين بالقول أن ثقافة عراقية ممتلئة بأسئلة الغد ستولد في السنوات القادمة، وها هي في المقدمات مما نقرأه من قصة وشعر ومقالة ولوحة وموسيقى.

ديوان " متحف العدم" فسحة من أمل الروح الصوفي في واقع مغمور بالدين، لذا تشكل قراءتي له بحثا في مضامين شعبية قيلت بلغة غير شعبية. عادل مشغول بما تحت اللغة المحكية بتلك البقعة المبهمة التي تتداخل فيها أشياء العالم الخارجي والداخلي فلا باطن للموضوع ولا خارج كل ما يمكن أن يصلنا منه هو في إطار القول غير المباشر الذي يستعير تصورنا المأساوي في العراق:

أنا
آخر المهرجين هنا
وهذا الطريق الذي يتآكل الآن تحتي
هو آخر حبالي المتبقية،
فاجلبوا لي على عجلٍ
من كل ما دبَ في الأرضِ
أو طار
زوجين اثنين
قبل أن يبلغ الطوفان حبلي الأخير. ص٩٣

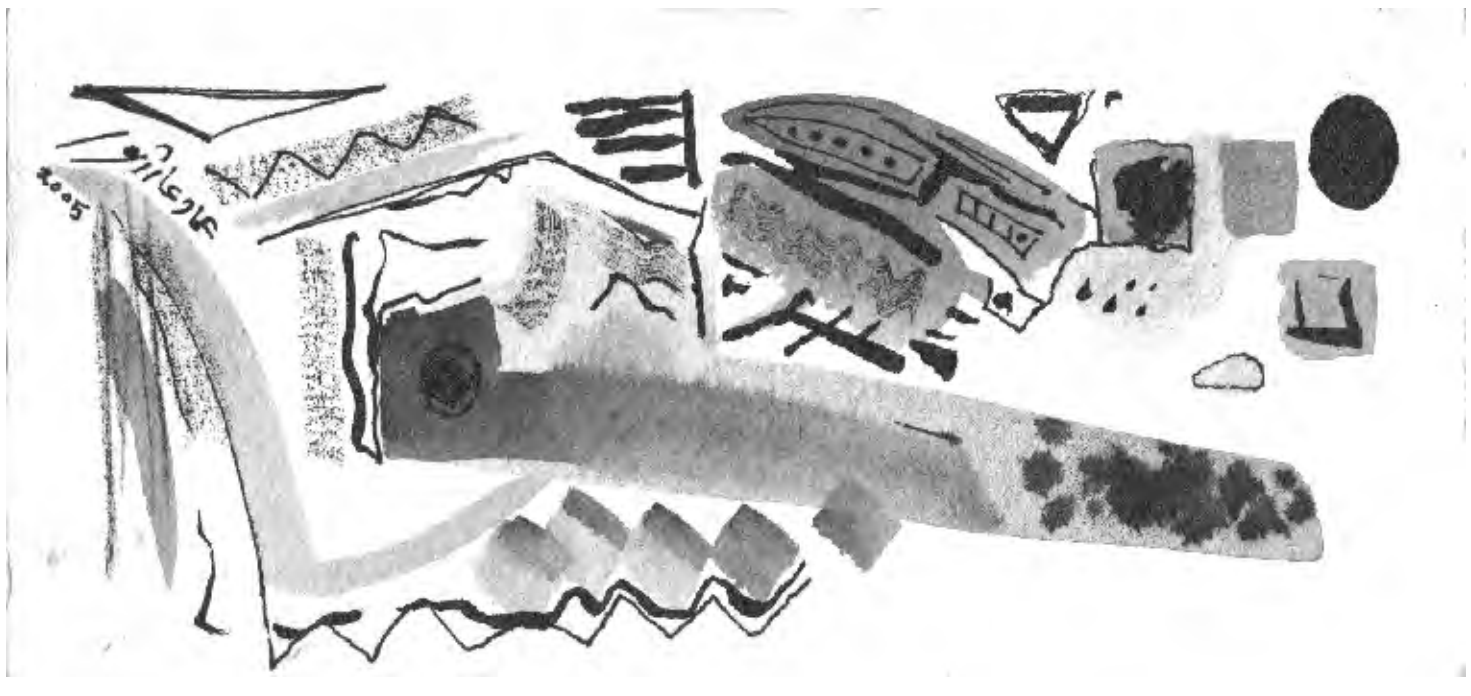

محسن الرملي يؤرخ وجع أرواحنا

زهير كاظم عبود

بقدرة بارعة يتمكن القاص العراقي محسن الرملي من أستثمار مفردات يوظفها لصالح نصوصه القصصية فيستغلها أجمل أستغلال ويستنطقها ويراوغها ويؤسس عليها الخطوات الأولى التي يقوم عليها البناء القصصي لمجموعته االقصصية (ليالي القصف السعيدة) الصادرة عن دار سنابل للنشر والتوزيع في القاهرة ٢٠٠٣ .

اللغة الجريئة التي يعتمدها القاص محسن الرملي وقدرته على الولوج الى عمق الصورة القصصية المنقولة في قصصه ، إضافة الى تمكنه من ألتقاط اللحظات الدقيقة في يوميات حياة الناس خلال الحرب والقصف وان يستطيع أن يقتنص هذه المساحات الأنسانية من الحياة اليومية للأنسان في زمن المحنة ، و تمكنه من ألتقاط المشاعر المتوزعة بين شخوص قصصه التقاطا فنياً متنوعاً، وبالرغم من أن المحور العام للقصص المتوزعة في هذه المجموعة مؤسس على الثيمة نفسها، الإان هذا يؤكد دون شك مقدرته الفائقة على تجسيد وجع الأرواح وهواجس الناس .

ويكاد يكون لمفردة (القصف) معنى واحد ومفهوم واحد لكن جميع أهل العراق يشتركون في معرفتها أو ترقبها أو تخيلها فقد ذاقوا مراراتها وتلوعوا في لحظات انتظارها ، وأرعبتهم لحظة تماسها مع بيوتهم أو أرواحهم وأجسادهم الوجلة والمترقبة في لحظة الخوف ودوي انفجارها وماتحدثة فيهم من خواء في الروح ورعب يدب في الجسد وزوغان في النظرة الى الحياة التي لا تعود لها ادنى قيمة خلال لحظات دوي الأنفجارات، بالأضافة الى ترقب خائب في لحظات الحياة اليائسة تحت سقف القضاء والقدر في لحظات ترقب الموت اليومي.

ومحسن الرملي الذي بدأ تجربته القصصية بمجموعته (هدية القرن القادم) الأردن ١٩٩٥ و(أوراق بعيدة عن دجلة) أسبانيا ١٩٩٨ و(الفتيت المبعثر) القاهرة ٢٠٠٠ والتي حازت على جائزة أركنسا الأمريكية باعتبارها أفضل عمل ادبي عربي مترجم الى الإنكليزية، إضافة الى إصداراته المسرحية (البحث عن قلب حي) ، قدم لنا هذه المرة ليالي مليئة بالشجن والإرهاصات والدقائق التي عرف كيف يدخل بها الى عقولنا ، ونقلنا دون أن ندري الى قرية (فارة) و(سديرة) وفي محيط هذه الدائرة يحول أوجاعنا الى مفردات وسط المحنة العراقية واكتظاظ الناس المتجمعة في أماكن ضيقة بأنتظار قدرها وقصفها الموعود فيجلسنا معها ويوهمنا ان لنا بيتاً ومكاناً بينهم .

في مجموعته ليالي القصف السعيدة يقوم الكاتب بتقسيم مجموعته الى كتابين ، الكتاب الأول كولاج سردي عن (كتاب القصف) ويتوزع فيها الكاتب بين المشاعر والمخاوف وتوظيف اللحظات الدقيقة لتاريخ القصف بين طفولة الدنيا حيث يسرد بشكل موجز ومختصر ورمزي كل التطور التاريخي للبشرية ، وعلى مقولة الشهيد الراحل حسن مطلك يؤسس مراهقة الدنيا حيث يتكئ على كتاب سفن لند كفيست (تاريخ القصف) فيستل منه ما يفيد توظيف التاريخ لصالح اكتمال المشهد القصصي .

لكنه يعود الى قريته وتحت أجواء الرعب والظلمة والخوف من القصف يستل كلمات قصته شيخوخة الدنيا ، وعن القصف ومعانيه ومفردته وتنوع معانيها وخلطة تبديل الكلمات والأشعار والمفردات ويكلل هذا باستغلاله رسالة من صديقه الأديب الحقوقي محمد بن مكرم من مصر ليتحدث له بإسهاب طريف ودقيق عن تطرق الشعراء العراقيين الى هذه المفردة ومعاني الكلمة وتفكيكها في قواميس اللغة واستعمالاتها العربية المختلفة .

أما الكتاب الثاني والذي أستل القاص محسن الرملي عنوان المجموعة منه فيؤرخ القصف في غرفة أمه ثم تتسع دائرة القصة لتشمل سلطان والأستاذ موسى ومحنة الحمار الذي سكر تحت قصف التحالف وهي أشارة ذكية يمكن أن نستل منها مانريد .

وينجح الرملي في محاولته هذه في أن يجعل القارئ مشدوداً ومشدوها لمدخل قصصه ومن ثم متابعة أحداثها بتشوق وبمتابعة لاتقطعها كل أشغال المرء أو مواعيده ، فهو يأخذ أنفاسك واهتمامك لتجد نفسك تدور معه لتستمع وهو يتحدث عن القصف ودار العدالة المائلة وحظ أم سلمان التي مال عليها جدار المحكمة في حين بقيت العدالة مائلة ليس في كركوك وحدها وأنما عم ميلانها البلاد .

في قصص محسن الرملي تشعر أنه استطاع أن يفتح لنا منافذ وحكايات يمكن أن نكون نحن أبطالها ويمكن أن نختلف معه لكنه يتحدث لنا عنها بحميمية متناهية وصدق المشاعر واعترافات البسطاء دون موارية أو حياء تغلفه كلمات غيره من الكتاب الحذرين.

محسن الرملي لم يزل يفتح لنا مجرى ذكرياته العذب والمنساب يسرد علينا ما كابده الناس وما أوجعهم من مجامر الروح العراقية المولعة بالقصف والحزن والانفجارات والتي لا تدري الى أين المفر ؟؟

في مجموعة القاص محسن الرملي تتلمس تطور اللغة والإمكانية التي ينتقل بها الرملي قفزا الى الصدارة في مجال القصة القصيرة ، فذاكرته لم تزل خزينا ثراً من القصص الممتلئة بأحاسيس الناس وحركة البسطاء الطيبين من أبناء العراق ، ومن ثم نجاحه في توظيف معاناته الأنسانية وترحاله وأبتعاده عن الوطن وحياته في بلاد الأسبان ما يشكل له خزينا معرفياً تم توظيفه كله لصالح النص القصصي ، لذا فأننا نشعر بالتطور الفني والتقني وجمال اللغة المنسابة بين سطور قصصه، وحيث تجد تأويلاً لمعنى ما في قصصه فثمة رمز يريد الرملي أن يؤشر عليه ، وأذا كان يتحدث لك عن قريته (سديرة) فأنه يريد أن يختصر الوطن بحدودها ، وحين تحاصره المحنه يرسم أسم الشهيد حسن مطلك كرمز متجسد لعطاء الروح في ظل الحاصب أو القاصف أو في ظل الرعد ودوي الانفجار والصعق والبريق فكلها تخشع منها الروح في بلاد نائية مثل (سديرة)

هل استُغفِل المثقفون

سهيل نجم

قد نقر جميعا بأننا من دون إخضاع حياتنا عموماً إلى عملية نقد بناء وصريح سنظل نجتر أخطاءنا متخندقين دائماً في حالة من الدفاع عن النفس ضد أي نقد موجه إلينا، حتى إذا أدركنا أنه صواب ونسعى للالتفاف على تلك الأخطاء بالتبريرات والحجج غير الموضوعية. قد نقر بذلك ولكننا لا نتقبله في وقت الممارسة الحقيقية. كما أن السكوت أو غض النظر عن الأخطاء والمحاباة، خصوصاً من قبل الفئة المثقفة، أمر يشكل عائقاً كبيراً إزاء تلافي السلبيات.

إن الناظر اليوم إلى أحوال الثقافة والمثقفين يرى أنها لا تسر عدواً ولا صديقاً. صحيح أنها حلقة من بنية عامة متصلة، وأن الوضع العام في حالة من اللاإستقرار على الرغم من التقدم الذي يحصل بوضوح على الجانب السياسي، ولكن هذا لا يعني أبدا أن نهمل اساسيات عملنا بهذه الحجة أو تلك ليؤدي ذلك إلى تردي حال الثقافة. وتردي حال الثقافة من الممكن أن نتبينه من تفشي التخلف الثقافي والأمية الثقافية واستشرائهما حتى بين المتعلمين أو حتى بين من حصلوا على "الشهادة الكبيرة"، وهذا واضح من الحوارات المتشنجة والآراء المتعصبة البعيدة عن الروح الديمقراطية الحقيقية التي تتقبل الآخر المخالف بالرأي، والأدهى من كل ذلك ما نلاحظه من الانقيادية التي عليها البعض من الناس وغياب الفردانية والإرادة الحرة.

لقد دعا القرآن الكريم في الكثير من آياته الإنسان المسلم إلى التفكر وإلى استعمال عقله لتدبر أموره وفهم دينه ودنياه كي لا يكون تابعاً منقاداً لتأثيرات الآخرين الذين قد يحرفونه عن طريق الصواب حسب أقوالهم واجتهاداتهم التي قد تستمد من قراءة خاطئة لتعاليم الدين. من هنا تأتي ضرورة أن يتثقف الإنسان ويلم بأصول التفكير والفكر كي يتسنى له الفرز بين الغث والسمين من الأفكار. للأسف الشديد صار الحال ينحسر إلى تقلص شديد في عدد المتعلمين القادرين على التحليل والفرز ويتزايد كل يوم عدد التابعين بدون دراية، وفي اعتقادي أن أول المسؤولين عن هذا التردي هو الإهمال الذي طال الثقافة والتربية العلمية عموما طوال عشرات السنوات في ظل الحكم الاستبدادي السابق. ولكن ذلك عصر ولى، وصرنا نسميه النظام البائد. أكاد أقول أننا ومنذ سقوط ذلك النظام لم نبدأ حتى الخطوة الحقيقية الأولى لإحياء الثقافة العراقية الأصيلة. والمسؤولية في تعثر تلك الخطوة تتحملها في تقديري جهات عديدة من بينها السياسات الحكومية عامة التي وضعت الثقافة على الرف وكذلك الوزارة التي أنيطت بها رعاية أحوال الثقافة في البلاد، هذا فضلاً عن المثقفين أنفسهم، فهم أيضاً يتحملون وزراً كبيراً من تردي حال الثقافة.

فبحجة الوضع الأمني والضغط الإرهابي على البلاد بأسرها وما يقتضيه ذلك من تكريس للجهود والأموال والوقت لمحاربة الإرهاب لم تضع الحكومات الثلاث المتعاقبة بعد سقوط الصنم أي برنامج مدروس للنهوض بأحوال الثقافة رغم الحاجة الماسة إلى ذلك. يقيناً أن هذه الحكومات قامت ضدها تحديات كبيرة داخلية وخارجية ولا تزال، ولكنني أزعم أنها قد فاتها أن تدرك أن دعم الثقافة ووضع برنامج علمي صحيح لازدهارها كانت ستكون له نتائج إيجابية في ترسيخ الوحدة الوطنية وقيم التسامح بين العراقيين وإنشاء سد حصين ضد انتشار الأفكار المنحرفة التي باتت تشيع شعارات العنف والإرهاب وروح التفرقة بين مكونات الشعب العراقي. لماذا انحصر دعم الدولة للثقافة في إقامة المهرجانات الشعرية التقليدية وفي إلقاء كلمات حماسية في أهمية دور الثقافة ووعود لم تتحقق في دعم هذا الدور؟ أين الدعم للمسرح والسينما وبقية الفنون؟ أين نحن من المقولة الشهيرة، "أعطني خبزا ومسرحاً أعطك شعباً مثقفاً"؟ أين الدعم للسينما العراقية؟ أين الدعم للكتاب العراقي؟ أين الدعم لكتب الأطفال؟ أين نحن مما هو مطروح في ميادين الثقافة العالمية؟ مؤسسات عالمية كثيرة تكرس عملها لدراسة الوضع العراقي ونحن لا نعرف ماذا يكتبون إن كان خيراً او شراً؟ لماذا تم التركيز على الإعلام وأهملت الثقافة؟ ..ولماذا تكون وزارة الثقافة آخر الوزارات في المخصصات المالية؟

نشطت وزارة الثقافة أول الأمر في محاولة جذب المثقفين إليها وسعت من خلال ندوات عديدة إلى تحفيز المثقفين من أجل رسم سياسة الوزارة ثقافياً بأنفسهم كي يتحملوا مسؤولية ذلك فاحتفلت برواد الثقافة العراقية من أدباء ومفكرين وفنانين وأقامت أماسي ثقافية عامة لطرح إشكاليات الثقافة العراقية وعوامل النهوض بها وتتوج ذلك بإقامة مؤتمر كبير للمثقفين،. لكن كل ذلك انحسر شيئاً فشيئاً حتى أوشك الوصول على الانطفاء. يحق لنا أن نتساءل اليوم لماذا تم تجاهل التوصيات التي رفعها مؤتمر المثقفين الذي أعدت له وزارة الثقافة نفسها لوقت طويل وبالتعاون مع منظمة اليونسكو وبمباركة من رئاسة الحكومة والجمهورية، وفيه اجتهد المثقفون العراقيون من كافة الاختصاصات والذين أتوا من كافة المحافظات والجامعات ودعي قسم منهم من أماكن اغترابهم في أصقاع بعيدة من العالم وشكلوا ورش عمل في غضون ثلاثة أيام ليضعوا توصيات من الممكن عدها برامج عمل طموحة تستحق الدراسة والتنفيذ فيما بعد للنهوض بواقع الثقافة المتردي؟ لماذا صودرت كل تلك الجهود بكل بساطة؟ ولماذا صرفت كل تلك المبالغ في الضيافة والاعداد، إذا لم تتم الاستفادة من تلك التوصيات؟ اليس في ذلك هدر للجهود والأموال العامة ؟ وإذا كنا نتجاهل توصيات وملاحظات المثقفين ولا نثق باهميتها أو نحترمها لماذا دعوناهم إذن؟ هل يكون من المشروع التساؤل بعد كل هذا إن كان المثقفون قد استغفلوا؟

إن الإبداع العراقي غزير ومتنوع. والكتاب العراقيون يرفدون دور النشر العربية وحتى الأجنبية بمؤلفاتهم العديدة. ومن الناحية الأخرى القارئ العراقي متعطش للكتاب عامة والعراقي خاصة. ولكن أين هذا الكتاب؟ مازالت المخطوطات العراقية الجديدة والقديمة تقبع إما على الرفوف الخاصة في بيوت المؤلفين أو حتى تنتظر دورها الطويل على رفوف دار الشؤون الثقافية وهي الدار "الوحيدة" التي تتولى نشر الكتاب العراقي في العراق! وفي أحسن أحوالها تقبع في المخازن في سبات طويل تنتظر حل معضلة التوزيع الكأداء. والخلاصة أنها بعيدة عن يد القارئ. من حق هذا القارئ أن يطلع على النتاج الابداعي العراقي الذي تلقفته دور النشر العربية، لماذا لا يتم احتضانه وإعادة طبعه في العراق ليعود من غربته التي طالت كما هي حال مبدعيه؟ الكاتب والمترجم العراقي نفسه يحلم ويتمنى أن ينشر كتابه في بلده لأنه بكل بساطة موجه إلى القارئ العراقي أكثر من غيره وهو معني بالشأن العراقي أكثر من غيره. والكلام كثير عن استغلال دور النشر العربية وتعاملها السيئ مع المؤلف العراقي فيما يخص حقوقه وفيما يخص توزيع كتابه أو غير ذلك. ما الذي فعلته وزارة الثقافة بشأن تشجيع دور النشر الأهلية لتوسيع المجال في فرص نشر الكتب، خصوصاً وهي غير قادرة تماماً على أن تتولى استحقاقات هذا النشر.

لماذا لم تتم حتى الآن إعادة الحياة للشركة الوطنية للتوزيع والنشر؟ أو إنشاء ما هو بديل عنها؟ هل لدى الوزارة علم أن عدة مجلات تطبع كالأقلام والتراث الشعبي والمورد ودجلة وكلكامش والثقافة الأجنبية وأخيراً المأمون وليس ثمة من سبيل إلى توزيعها لذلك ربما تصل عشرين نسخة أو أقل أو أكثر من كل عدد منها إلى شارع المتنبي والباقي منها يبقى في المخازن؟ وهي مجلات وليست كتباً؟ أليس في هذا هدر للمال العام؟ الا تصرف الوزارة الملايين لطبع هذه المجلات؟ ألم يكن من الأحرى أن تحل مشكلة التوزيع قبل الطباعة؟ وإذا كان التوزيع متعذرا إلى هذه الدرجة اليس من الأحرى التوقف عن طبع هذه المجلات أو أرجاء ذلك حتى تتم حل مشكلة التوزيع جذرياً؟

إشكاليات وتداخلات وأسئلة لا حصر لها تخص الكتاب العراقي، وثمة ما يوازيها من أسئلة حول المسرح والسينما والموسيقى العراقية، فهل من اهتمام؟

المثقفون أنفسهم يتحملون المسؤولية في تراجع دور الثقافة وفعالياتها بسبب طغيان السلبية وضعف المبادرة وانتظار من يدعوهم إلى أن يقوموا بممارسة دورهم المزعزم في التنوير والرقابة كونهم يمثلون ضمير الأمة!

لقد تشكلت إثر مؤتمر المثقفين المشار إليه لجان للمتابعة، ترى أين ذهبت وما الذي فعلته؟ لماذا لم تقم تلك اللجان بمطالبة وزارة الثقافة والحكومة أيضاً بمصير توصياتهم؟ لماذا لم يعقدوا الندوات التي تدعو إلى وضع الخطط العملية للنهوض بالثقافة ومطالبة الوزارة والحكومة بدراستها وتنفيذها؟ حتى اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين كان الأحرى به أن يقوم بدوره المرتجى في الحث والمطالبة بتفعيل دور الثقافة اجتماعياً وسياسياً وعلى وفق برنامج مدروس.للأسف الشديد ظلت هذه الحلقات والمؤسسات جميعها ضعيفة الأداء من ناحية وضع برنامج طموح للنهوض بالثقافة ولم تسهم جدياً في ضخ الوعي في المجتمع العراقي ليزداد إدراكاً بالمخاطر والتحديات التي يواجهها، لاسيما وهم يعيشون مرحلة جديدة وحساسة من تاريخ العراق وثمة حاجة أكيدة لترسيخ الروح العلمية وتجاوز الخرافة في التفكير من ناحية وتفهم صحيح لمعاني الديمقراطية والدين والمواطنة والقانون لا كشعارات مستهلكة بل كممارسة فعلية من الناحية الأخرى.